تراجم وسير

حسن بولحبال: المفتي الشاعر

أ/ عبد القادر خليفي

أبو مدين شعيب بن الحسين الغوثي

أ/ بو مدين بن عدة

حسن بولحبال: المفتي الشاعـر

أ. د/ عبد القادر خليفي
جامعة وهران

شهد النصف الأول من القرن العشرين نهضة نشيطة في الجزائر كما كانت في مختلف البلاد المغاربية والمشرقية، نتيجة ظروف محلية ودولية، فتكاتفت جهود المثقفين من أجل رفع مستوى الجماهير الشعبية بواسطة التعليم والصحافة والوعظ والإرشاد، في المدارس والصحف وفي المساجد، وكان للرعيل الأول الذي تعلّم في جامعات البلدان الشقيقة مغربا ومشرقا الأثر الفعّال في هذه النهضة المباركة، ومن هؤلاء المثقفين الذين كان لهم باع في هذه الحركة الشيخ حسن بولحبال. فمن هو هذا الشيخ الشاعر؟

المولد والنشأة:

ولد حسن بولحبال ببلدة خنشلة سنة 1897م، حين كان والده يعمل في القضاء، فهو إذن من بيت علم وثقافة، حفظ القرآن الكريم ببلدته، كما تعلّم بعض علوم اللّغة العربية والفقه الإسلامي، ثم اتجه إلى تونس سنة 1909 م، وانتسب إلى الزيتونة التي تخرّج منها بعد أربع سنوات. «وبذلك كان من الجزائريين السباقين إلى هذا المعهد الديني العالي، الذي سيتوافد عليه الكثير من الجزائريين الذين سيَكُونون من رواد النهضة في النصف الأول من القرن العشرين.»[1]

وبعد إنهاء دراسته عاد إلى الجزائر واستقر بباتنة، حيث كان والده محمد بن أحمد قد انتقل إليها قاضيا[2]، واشتغل هناك مدرسا لمدة أربع سنوات. وبعد وفاة والده انتقل حسن بولحبال إلى بلدة خنشلة موطنه الأصلي ومنزل طفولته، هناك أنشأ بمعية بلقاسم شرفي –الحازم الوطني كما يسميه محمد الزاهري-

1 - عبد القادر خليفي، حسن بولحبال مفتي وهران، مجلة إنسانيات، إصدار مركز البحث في الأنثروبولوجية الإجتماعية والثقافية بوهران. CRASC العددان -23 24، جانفي-جوان 2004.
2 - اشتغل في مهمة القضاء في الفترة من 1895 إلى 1918.

مدرسة عربية لتعليم القرآن الكريم واللّغة العربية لأطفال البلدة إحياءً لتراث الأمة وإيقاظا للمجتمع، لنقله من مجال الجهل والأمية إلى مجال العلم والمعرفة.

لكن السلطات الفرنسية كانت لهما بالمرصاد، وكيف يحلو لها البقاء مكتوفة الأيدي وهي ترى أبناء الشعب المقهور يتعلّمون ويستيقظون من سباتهم الطويل، فأغلقت المدرسة وطاردت المعلّمين، فغيَّر الشيخ مجال اهتمامه ليفتح هو وصاحبه مؤسسة للسيارات، لكن المشروع فشل، فعاد إلى اهتمامه الحقيقي وهو التعليم، مجال اختصاصه ونجاحه رغم كل ما كان يتربص به من قبل السلطات الإدارية الفرنسية الحاقدة.

وكان مقره الجديد هذه المرة هو بلدة عين البيضاء، التي كانت مقرا لزاوية آل خليفة، حيث كان يشرف عليها العالمان الشيخ محمد الكامل بن عزوز والشيخ أحمد بن ناجي.[1] وقد ذكر ابن باديس، الذي زار البلدة سنة 1929م، أنه لقي بها بعض العلماء، كان منهم الأديب الشاعر حسن بولحبال أحد المدرسين بالمسجد هناك، حين قال عن عين البيضاء: «عاصمة الحراكتة ومركز تجارتهم، حللتها ضيفا على الأديب السيد العربي موسوي الصايغي الوكيل الشرعي بها، وأنزلني ببيت الضيوف من جامعها الذي كانت توسعته وتأثيثه من آثار هذا الرجل ومَن وازره من أهل الخير والدين..» ويضيف: «في هذه البلدة يقصد عين البيضاء جماعة أهل العلم والأدب، منهم الشيخ السعيد الزموشي المدّرس –تطوعا- بجامعها، والشيخ حسن بولحبال و الشيخ الطاهر بن الأمين... وبها نشأ علمي مُتَهيئ لطلبه...»[2] وفي سنة 1931م شارك الشيخ في مسابقة لاختيار المفتين بمدينة قسنطينة، وكان من الناجحين الأوائل، فتم تعيينه بمدينة بجاية. وقد عاش في هذه البلدة إلى جانب زميلين له هما محمود بوزوزو المُدرّس بمدرسة الحياة، والإمام المهدي البوعبدلي(ت 1992م). وقد استمرت الصداقة بين الرجال الثلاثة إلى أن فرّق بينهم الحَمام.

وبعد مرور عشر سنوات من ممارسة مهنة الإفتاء بمدينة بجاية، حاول بولحبال الإنتقال إلى الجزائر العاصمة ليتقلّد المنصب نفسه، لكنه لم يوفق في ذلك، فطلبه بوهران فكان له ما أراد. وهكذا انتقل إلى هذه المدينة سنة 1941م، ليخلفه المهدي البوعبدلي ببجاية[3].

وقد حل حسن بولحبال مفتيا بوهران مكان المفتي السابق الشيخ بن خلفة سيدي الحبيب بن عبد المالك المتوفى يوم (13/10/ 1940م). وبقي المنصب شاغرا طيلة ثلاث سنوات تقلده سي أحمد بن عيسى مؤقتا

1 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص: 157.
2 - ابن باديس، حياته وآثاره، جمع ودراسة عمار طالبي، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ص: 304.
3 - أنظر : Section musulmane, dossier no 3533, cote 2260. Archives de la wilaya d'Oran-

وهو الذي أشرف على احتفالات أول ماي لتلك السنة بالمسجد الكبير، وذلك في اليوم الثاني من الشهر نفسه[1].

ومن المعروف أن المفتي كان من الشخصيات الرسمية التي تحضر مختلف الإحتفالات، إلى جانب بقية الحضور من الرسميين الفرنسيين منهم والمسلمين الجزائريين.

وبعد حياة مليئة بالجد والإجتهاد والأخذ والعطاء، توفي الشيخ حسن بولحبال في شهر مارس من سنة 1944م بمدينة وهران على اثر مرض ألـمّ به بعد عودته من البقاع المقدسة، ودفن داخل قبة سيدي الهواري وحضر جنازته العديد من رفقائه من الأئمة وشيوخ الطرق الصوفية بالغرب الجزائري.

وبعد هذا التقديم عن حياة الشيخ المفتي الشاعر، هيا بنا نلقي نظرة على بعض المصادر والمراجع التي تحدّثت عنه.

أولا: أرشيف ولاية وهران:

يحتوي أرشيف ولاية وهران على ملف خاص بالمسائل الدينية، به رسائل أصلية تخص الأمور الدينية بمنطقة وهران، وتقارير سرية صادرة عن مركز الإعلام والدراسة. Centre d'information et d'étude التابع لعمالة وهران.

ففيما يخص الشيخ بولحبال وجدنا خمس وثائق بهذا الملف:

أ- وثيقة مؤرخة في (10/17/ 1940م)، صادرة عن مكتب الإعلام والدراسة(CIE) تعلن عن وفاة مفتي وهران بوخالفة حاج حبيب بن عبد المالك[2] في (10/13/ 1940م)، والذي دفن يوم (10/14/ 1940م) في الساعة 15.

ب- تقرير خطي يتكون من صفحتين كتب في أعلاه على اليسار ما يلي: Sources directes وفي الوسط كتبت كلمة: Note، والوثيقة مؤرخة في 1940-10-14م، تتطرق لوفاة بن خليفة سيدي الحبيب بن عبد المالك مفتي وهران، وأن وفاته خلفت تنافسا شديدا على المنصب من قبل عدة مترشحين، يذكر منهم بخاصة زيدور الطيب المهاجي المدعوم من قبل مجموعة باشطرزي مسؤول الزاوية السنوسية، ويشير أيضا إلى مترشح آخر هو بلقاسم بن قابو التابع للطريقة التجانية.

1 - المصدر نفسه.
2 - تسميه بعض التقارير باسم بو خالفة وتسميه أخرى باسم بن خالفة.

ويوضح كاتب هذا التقرير الشروط الواجب إتباعها لتعيين مفتي وهران ويقول: «من المستحسن أن تكون التسمية للمناصب المهمة بعيدة عن كل تأثيرٍ للممارسات التي يمكن أن يستغلها المنتخَبون المسلمون الذين هم محرومون من سلطتهم بسبب إنتهاء مدّة نيابتهم. وإذا ما تمّ قبول كل ترشيح مقدّم من قِبَلِ ... أي منتخب مسلم، فإن هذا يعنى في نظر السكان، ترسيخٌ لسلطة هؤلاء المنتخَبين، الذين سيجدون كل الراحة لمواصلة تأثيرهم بصفة مثمرة، أمّا في الحالة الأولى فسيكون منصب المفتي ذا سلطة دينية حقيقية ولكنها ستكون أجنبية عن مقاطعة وهران.»[1]

Pour occuper le poste de mufti d'Oran, à une réelle autorité religieuse compétente, mais étrangère au centre d'Oran, il serait souhaitable que les nominations aux postes importants soient rendu tout a fait indépendant des intriques que pourraient exercés les élu musulmans lesquels sont d'ailleurs très vraisemblablement déchus de leur mandat. En agréant toute condidature présentée par Bachtarzi ou tout autre élu musulman ce serait consacrer aux yeux de la population l'autorité de ces élus qui n'en seront alors que plus à l'aise pour constituer, avec fruit leur trafic d'influence.

وقد وَضَع كاتب التقرير سطرا تحت عبارة «**أجنبية عن مقاطعة وهران**»، وهو ما كانت تتبعه السلطات الفرنسية في تعيين بعض الزعامات الجزائرية، حتى لا تكون لها عصبية في مكان نفوذها، وبهذا يسهل على هذه السلطات توجيهها الوجهة التي تخدم الإستعمار الفرنسي، وعندما يشير كاتب التقرير إلى المنتخَبين المسلمين فهو يعني الذين يتدخّلون لدى السلطات الفرنسية من أجل التوسط لهذا المترشح أو ذاك.

ج- رسالة مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية، من بن ديلمي محمد بن بلغالم من المسيلة إلى بن ديلمي سي علي بالزاوية العليوية بتلمسان مؤرخة في (08/04/ 1941م)[2]، يخبره فيها عن تعيين بابا عمر كمفتي حنفي بالجزائر، وأنه تحدّث مع عدد من الأشخاص من بجاية الذين أخبروه أنّ بولحبال يرغب في مغادرة بجاية، وأنه قد بذل جهودا ليُعَين مفتي حنفي بالجزائر، إلاّ أنّ بابا عمر هو الذي حصل على المنصب، وبهذا كان عليه مغادرة بجاية، فطلب تعيينه بوهران، وقد أخذ مكانه في بجاية سي المهدي (المهدي البوعبدلي). وقد كُتِبَ على الرسالة المترجمة كلمة confidentiel (سري).

1 - أنظر: -Section musulmane, IBID

2 - علي البوديلمي بن محمد جمع بين العلم والتصوف، تعلم في زاوية أبيه بالمسيلة ثم رحل إلى زاوية الهامل، كما دَرَس على يد ابن باديس بقسنطينة وتوجه إلى الزيتونة بتونس ثم القرويين بالمغرب لإكمال تعليمه وحصل منها على شهادات في العلوم الإسلامية وبخاصة في الحديث. كان رحمانِيَّ الطريقة كوالده، ثم مال إلى العليوية(الشاذلية)، وتوظف في الإدارة الفرنسية كمدرس بالجامع الكبير بتلمسان منذ سنة 1942، وأنشأ زوايا للتعليم العربي، وكان مديرا لمدرسة سيدي بومدين بتلمسان، ونشر صحيفة الذكرى بتلمسان، وكان من خصوم جمعية العلماء.(عن أ. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج:7، ص: 24-23).

ونحن هنا نتساءل، بأي حق تقوم السلطات الفرنسية بالاطلاع على إحدى رسائل المواطنين وترجمتها إلى اللغة الفرنسية، إنها الرقابة على كل شيء، وبخاصة المتعلمين من هذا الشعب المقهور. فبينما تُحترم طرق التعبير وتصان الحريات المدنية عند الأوربيين، تنتهك لدى الجزائريين الذين كانوا ينعتونهم بـ «المسلمين»، فأية حرية وأي تمدن جاؤوا به إلى هذه البلاد .

د- وثيقة مؤرخة في (1941/5/29م)، صادرة عن CIE بعمالة وهران، يُظهِر فيها أحد ضباط المركز رغبة الشيخ بن تكوك في تعيين مقدمه بوهران سي الطيب المهاجي المدعو زدور الطيب، ويعلل الشيخ بن تكوك رغبته هاته بالإشارة إلى تدين الرجل ووقاره، وأنه وهراني الأصل ولا ينتمي إلى أية حركة سياسية.

هـ- رسالة خطية من أحد الأوربيين من سكان قسنطينة إلى أحد النقباء (Capitaine) في الجيش الفرنسي بوهران، يتوسط فيها للشيخ بولحبال كي يعين مفتي بوهران. والرسالة مصحوبة بإحدى خطب الشيخ بولحبال مترجمة إلى اللغة الفرنسية، يدل محتواها على مدى إخلاص هذا الشخص للدولة الفرنسية.

ومن حسن حظ بولحبال أننا وجدنا مثل هذه الوثائق، التي وإن كانت قليلة، فإنها لا تتوافر لشخصيات أخرى في هذا الملف.

ثانيا: كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» لمحمد الهادي السنوسي الزاهري[1]:

هو كتاب من جزئين طبع سنة: 1346هـ/ 1927م، بمطبعة النهضة نهج الجزيرة رقم 11 تونس، وقد جاءت ترجمة صاحبنا بولحبال في الجزء الثاني من الكتاب.

صدر الكتاب إذن في العهد الإستعماري، وفي فترة بدأت فيها معالم النهضة السياسية والفكرية تتجلى بين الجزائريين لتُظّلل سماء الأرض الجريحة، فتبعث فيها روحا جديدة نحو التحرّر والإنعتاق. وقد أبرز المؤلف الغرض من نشر هذا الكتاب هو إطلاع الجمهور على بعض شعراء الجزائر بقوله: «فإن الذي أرجوه ويرجوه كل من يشاركني ولو أملا في عملي هذا هو: النهوض بالأدب الجزائري الذي لا يقل اعتبارا عن أدب أي وطن كان.. وليس لي من شيء أرجوه من وراء الأتعاب غير مرضات وطني الذي أعُد رضاءه مظفرا فيه ولطالبيه حياة أبدية وسعادة لا نهاية لمنتهاها»[2].

1 - محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الجزء الثاني، مطبعة النهضة، تونس 1927.
2 - المرجع نفسه، ص: 18.

تَعَرّض المؤلف لصاحبنا بولحبال من خلال ست صفحات (73-78)، عنونه كالتالي: «الشيخ حسن أبو الحبال»، وبدأ بقوله: «هو العلامة الفاضل الأستاذ الشيخ حسن بولحبال ابن محمد بن أحمد بن محمد اليدري نسبة إلى قبيلة أقامت منازلها على مقربة من جيجل»[1]. وأنه تربى في بيت والديه، وحفظ القرآن الكريم في كُتّاب قريته بخنشلة، والتحق بالزيتونة ثم عاد إلى وطنه، وذكر ما تعرّض له من صعوبات في حياته الخاصة تجاه الإدارة الفرنسية وأعوانها، إلى أن استقر به المقام للعمل مدرسّا بعين البيضاء، تزامنا مع صدور الكتاب سنة 1927م.

والكتاب جدّ مهم لأنه يؤرخ لشعراء في مرحلة حرجة، قَلَّتْ فيها الكتابات العربية بخاصة والوطنية منها بعامة، وهو مصدر لا يَسْتغنى عنه باحث في الكتابة عن تلك الفترة.

ثالثا: كتاب «الشعر الديني الجزائري الحديث» لعبد الله ركيبي[2]:

نُشر هذا الكتاب سنة 1981م عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قسّمه المؤلف إلى بابين، باب للشعر الصوفي وآخر للشعر الديني الإصلاحي، مبيّنا خصائص كل نوع، كما تعرّض لما كان بين الطرقيين والإصلاحيين من صراع عن طريق الصحافة بنصوص وخطب وأشعار في هذا المعنى.

وقد جاء ذكر حسن بولحبال ضمن المحور الثاني، عندما كان الشيخ شديدا على الطرقيين متشبعا بأفكار الإصلاحيين نتيجة ثقافته الزيتونية ومستواه العلمي البارز، فقد أورد المؤلف للشاعر بيتين يذم فيهما رجال الطرق الصوفية، كما جاء بمقطوعات شعرية أخرى يَرُدّ فيها على تهجماتهم، ويهجوهم هجاءً مُرًّا في بعض نقائِضَ جرت بينه وبين أحد رجالهم المدعو «رشيد»، كما جاء المؤلف بأبيات يناجي فيها الشاعرُ الشيخُ القمرَ، وهو في حقيقة الأمر يخاطب الإستعمار الفرنسي.

والكتاب عمل أكاديمي، يتميّز بمنهجية صارمة ولغة سليمة ودقة في البحث، أتى بنماذج عديدة لشعراء يجهلهم الكثير من المتعلّمين.

1 - نفسه، ص: 73.
2 - عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

رابعا: «مذكراتي» لعبد الرحمن بن العقون[1]:

الكتاب عبارة عن مذكرات عن حياة المؤلف، تتكوّن من 461 صفحة، صادر عن دار دحلب بالجزائر العاصمة سنة 2000م، جاء حديث المؤلف عن حسن بولحبال من الصفحة 152 إلى الصفحة 155، والمحتوى عبارة عن خطاب ألقاه بولحبال في المؤتمر الثالث لجامعة الزوايا والطرق الصوفية المنعقد بالجزائر سنة 1939م وهو آنذاك مفتي ببجاية[2].

يبدأ خطاب الشيخ بقصيدة يدعو فيها إلى المصالحة بين رجال الطرق الصوفية ورجال جمعية العلماء وتتكون القصيدة من 17 بيتا، ويدعو فيها إلى اتباع سبيل التقوى والإعتدال والخوف من عقاب الله، ويمثل لذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، ويدعو الطرق الصوفية إلى أن تكوّن قواعدا لتعليم كتاب الله وإرشاد الكبار، وإلى ترك الخوض في مسائل الخلاف، لأنها توقظ الفتن، وينتهي إلى القول بأن الزوايا يجب إصلاحها لا إعدامها.

والكتاب كما هو واضح عبارة عن سيرة حياة لشخصية عايشت فترتين من تاريخ الجزائر، فترة الإستعمار وفترة الإستقلال، شخصية مثقفة شاركت في الحياة الأدبية والسياسية لبلاده، ورسمت ذلك من خلال مسار حياتها، والكتاب لا يكتفي بحياة المترجم، بل يحتوي على أشعار ونصوص أدبية وتاريخية عن صاحب المذكّرات وعن غيره ممن لقيهم.

خامسا: كتاب «الإعلام بمن حل بوهران من الأعلام،» لقدور إبراهيم المهاجي:

استعرض المؤلف عشرين شخصية من أعلام وهران في 188 صفحة، كان أحدهم هو حسن بولحبال الذي ذكره في الصفحات من 87 إلى 93.

فذَكَر مولده سنة 1897م بخنشلة وسط عائلة تحمل كثيرا من معاني الثقافة والتكوين، أخذ عن والده الذي كان يتولى القضاء يومئذ، وأنه درس القرآن الكريم وعلوم اللّغة العربية والأدبية والدينية، وأنه عاد من جامعة الزيتونة بتونس بعد نيله شهادة التحصيل من قسم علوم الشريعة وأصول الدين، فمارس التعليم ليساهم في الحفاظ على أسس الهوية الوطنية من لغة ودين، وأنه بدأ التأليف وهو في عين البيضاء التي كانت مدارسها نموذجا للحركة العلمية النشيطة، ومن تلك المؤلفات ديوانه الشعري الذي انتقى منه صاحب

1 - عبد الرحمن بن العقون، مذكراتي، منشورات دحلب، الجزائر 2000.
2 - نشر الخطاب في جريدة الرشاد لسان حال الجمعية في العدد 42 بتاريخ 2 ربيع الثاني 1358 الموافق 22 ماي 1939، بحسب ما ذكره المؤلف.

الكتاب قصيدة القمر في خمسة عشر(15) بيتا، وذكر من مؤلفاته أيضا «نبراس الحقيقة فيمن ادعى العلم والطريقة»، وهو كتاب لم يطلع عليه صاحب الكتاب، وذكر أن ابن الشيخ بولحبال ينوي تحقيق الكتاب ودراسته.

كما ذَكَر الكاتب اشتغال الشيخ بالفتوى في مدينة بجاية سنة 1931م، ثم انتقاله إلى وهران سنة 1941م وذكر وفاته سنة 1944م بعد عودته من الحج إثر مرض ألمّ به دون إذن مسبق.

والكاتب وإن اهتم بتقييد سِيَر مثل هؤلاء العظماء المغمورين، والذي يعود له الفضل الكبير في التذكير بهم وجذب الإنتباه إليهم عن طريق البحث والإستقصاء، فإن المعلومات التي أوردها قليلة بالنسبة للشيخ بولحبال، وكلها متواجدة بكتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر.

سادسا: «معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين»:

صدر المعجم في جزئين من منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية بجامعة منتوري بقسنطينة في 22 ذي الحجة 1423هـ الموافق6 مارس 2002م، عن شركة دار الهدى - عين مليلة - الجزائر.

جاء ذكر بولحبال حسن في الجزء الأول من المعجمين في صفحتين اثنتين تتضمنان تلخيصا للتعريف الوارد في كتاب شعراء «الجزائر في العصر الحاضر»، السابق الذكر.

سابعا : - Livre d'or de l'Algérie, Dictionnaire des personnalités passées et contemporaines. Par : Jean et André Brochier[1].

هو كتاب يجمع مختلف الشخصيات الجزائرية المسلمة منها والأوربية في العهد الإستعماري، نشر سنة 1937م، ويشمل أعلاما في السياسة والإدارة والثقافة والدين وغير ذلك، وقد وردت ترجمة الشيخ حسن بولحبال في الصفحة 75 تحت عنوان: «بولحبال أحسن بن محمد»، على أنه مفتي ببجاية، وأنه ولد سنة 1897م بخنشلة، درس في الزيتونة منذ سنة 1909م، ثم عاد منها ليشتغل مدرسا لمدة أربع سنوات في باتنة وثلاث سنوات بخنشلة وسبع سنوات بعين البيضاء..الخ. وفي سنة 1931م عُيّن مفتي ببجاية، وأنه ألقى عدّة دروس دعائية خلال الحرب العالمية الثانية لصالح فرنسا، وأن أباه بولحبال محمد بن أحمد كان قاضيا منذ 1895م حتى 1918م -السنة التي توفي فيها- وأن أباه هذا حصل على وسام «Officier d'académie».

1 - Jean et André brochier, Livre d'or de l'Algérie, dictionnaire des personnalités passées et présents, Bacconier frères imprimeurs éditeurs, Alger 1937.

ثامنا: «التركة المغمورة، هؤلاء لهم أثر» للشريف شناتلية[1]:

هي مطبوعة صدرت في شهر أكتوبر من سنة 1989م وتُواكِب الذكرى 35 لاندلاع الثورة التحريرية بدعم من منظمة المجاهدين والمجلس الشعبي البلدي لعين البيضاء، صدرت منها طبعتان: الطبعة الأولى سنة 1988م والثانية سنة 1989م. والكتاب إبراز لبعض رجالات مدينة عين البيضاء الجزائرية، ورغم أن حسن بولحبال عمل بالبلدة لمدّة سبع سنوات إلاّ أنّ المطبوعة لم تتعرض له إلاّ عند الحديث عن الشيخ الأخضر بوكفة، أحد أعلام المدينة باعتباره أحد تلاميذ بولحبال، الذي عمل إلى جانبه واستفاد منه أيّما استفادة، يقول المؤلف: «وبعد ذلك أنعم الله عليه بنعمة ظلّ يحفظها في مخيّلته ويذكرها إلى آخر أيامه حين كانت الفرصة الثمينة التي منحه الله إياها، فبعد زواجه بسبع سنوات قَدِمَ إلى المدينة -حسن بولحبال- فلازمه الأخضر الطموح الذي لا يمكن له تضييع فرصة التعليم على يد الشيخ بولحبال، فظل معه سبع سنوات فكان نعم التلميذ ونعم المتلقي، وكان تأثير الشيخ الشاعر واضحا وجليا في نفس تلميذه، وغادر بولحبال عين البيضاء لينضم إلى سلك المفتين بتعيينه كمفتي بمدينة بجاية، ثم اتجه إلى وهران حيث عمل هناك مفتي أيضا، ومات في وهران رحمه الله تاركا فراغا كبيرا»[2].

تاسعا: مجلة إنسانيات:

خصصت مجلة إنسانيات العددين 23 و24 جانفي-جوان 2004م لمدينة وهران تحت عنوان: «وهران مدينة من الجزائر». ورد في هذين العددين مقال عن حسن بولحبال لعبد القادر خليفي، تعرض فيه لمسيرة الشيخ بولحبال عبر مفردات هي: التعريف بمنصب الإفتاء- من هو حسن بولحبال- بولحبال المفتي- أخلاق بولحبال - نشاطاته- أفكاره من خلال أشعاره- وفاة الشيخ.

وقد اعتمد صاحب المقال على المراجع المذكورة سابقا وعلى بعض الشهادات الشفوية لشهود عيان منهم:

- الشيخ عبد القادر بوجلال(من مواليد 1916م) إمام سابق بمسجد حي بدر (بيتي سابقا).
- ومنهم الشيخ عياض بوعبدلي(من مواليد 1923م) شيخ زاوية سيدي بوعبد الله ببلدة بطيوة.
- ومنهم الشيخ بلبشير محمد المعروف ببوجمعة(من مواليد 1925م) إمام سابق بمسجد الفلاح ومسجد الإمام مالك بوهران.

ويبقى الإطلاع على مؤلفات الشيخ موضوعا لأبحاث تالية لم نتمكّن من الحصول عليها حتى الآن.

1 - الشريف شناتلية، التركة المغمورة، هؤلاء لهم أثر، مطبوعة بمناسبة الذكرى 35 لاندلاع الثورة التحريرية، عين البيضاء، أكتوبر 1989.
2 - نفسه، ص: 33-32.

مكانة الشيخ بولحبال:

كانت ولادة الشيخ بولحبال في وسط مثقّف عاملا ساعَدَهُ على تخطي الصعاب، كما أكسبته تربية والده القاضي ومحيطه الواعي مستقبلا واعدا، فتمكّن من الظهور وإبراز قدراته من خلال وظيفته في التدريس أولا وفي الفتوى ثانيا، وفي مواجهة أقرانه في الحوار والمناظرات، إلى جانب موهبته الشعرية.

وهاهي فقرات من خطابه الذي ألقاه في مؤتمر الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر سنة 1939م تَظهر فيه البلاغة اللّغوية التي كان يتمتّع بها، حين يقول: «كم عَلَتْ أصواتٌ وارتفعت آهاتٌ، فالتحم الجمعُ واختلط السمعُ، ثم انْجَلى الغُبار وانكشف القَتار عن قاتلي السيد الحسين، يسألون عن أثر البعوض في الثوب والعجين، فسُحقا لها من فِتنٍ ككِسَف الليل المظلم وكِسر السيل المُفعم، الغالِبُ فيها مغلوبٌ والطالبُ فيها مطلوب، لم يرجع ظالمُها إلى رُشده ولا وَقَفَ مَظلومُها عند حَدِّه، تعالت فيها الحُجج وتعايَرت فيها الفرق فافتضحت هذا وهم يتلون ما يَدَّعون أنهم إليه يَدْعُون ﴿ **لاَّ يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَنَ ظُلِمَ وكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً**﴾[1].

كان بولحبال ذا بسطة في العلم والجسم، وذا لسان فصيح وبيان مليح ورأي صحيح، كما يقول عنه الشيخ بلبشير محمد المدعو بوجمعة. استطاع بذلك أن يُكَوِّن لنفسه مكانة سامية بين علماء عصره بالجزائر يذكر عنه الراوي بوجلال عبد القادر، نقلا عن شيوخ الطريقة الباقوية، الذين كانت لهم به علاقة وطيدة أنه كان إذا تكلّم في الفلاحة أوضح حتى يظن الحاضرون أنه يعمل بالفلاحة، وإذا تكلّم في الفقه أفصح حتى يظن الحاضرون أنه عالم فقه وأصول.

وكان ذا بديهة حاضرة، مكنته من تخطي المواقف الحرجة والسيطرة على مجريات الحوار الذي كانت تتضمنه التجمعات العلمية منها والشعبية المختلفة.

موقف الشيخ من الطرق الصوفية:

إن أهم ملاحظة تثير الإنتباه في حياة الشيخ حسن بولحبال، هو موقفه من الطرقيين الذين كانوا في صراع مع زعماء الإصلاح. ومن استعراض بعض آراء الشيخ المفتي، وجدنا له موقفين متناقضين من الطرق الصوفية، فمرّة ينعتهم بالمارقين المضلّين ومرّة ينعتهم بمتتبعي الطريق السوي القويم.

1 - من سورة النساء، الآية: 148. (صاحب المداخلة) الخطاب من كتاب: مذكراتي لعبد الرحمن بن العقون، ص: 154.

فقد كتب في المرّة الأولى عن الطرقيين بيتين شعريين، يتضح منهما موقفه المعارض لهم حين يقول:

قيل التصوف أصلُهُ * * * من بعض زُهاد الهُنود

قلنا تصوفُ عصْرِنا * * * مِن شر أخـلاقِ اليهود

وهو بهذا الموقف أقرب إلى رجال الإصلاح، الذين بدأت حركتهم في الظهور في العقد الثالث من القرن العشرين، وبخاصة منذ افتتاح نادي الترقي بالعاصمة وممّا يؤكد هذا نقائضه مع أحد رجال الطرقية والمنشورة في بعض صحف تلك الفترة، يقول في إحداها مخاطبا شخصا يدعى رشيد[1] :

رشيدُكم السفيهُ فما يُريدُ * * * وأنتم للعصا طُـرًّا عبيدُ

ويومكم العصيب دَنَا وهذا * * * جزاؤكم وليس له مَحِيد

ستلقون الردى فلها استعدوا * * * وضربي بالنِّعال لكم شديدُ[2]

«ويتهكم الشيخ (الشاعر) من الشِّعر الطرقي، ويقارن بينه وبين شَعْر لحية الشيخ في مقارنة مضحكة، ويقول:

وشِعرُكم له شَعر ولكن * * * كشَعر الشيخ ينتفه المريدُ

ويهجو هؤلاء هجاء مُرًّا ويقول:

وهل من عُصبةٍ عمياءَ إلا * * * جماعتكم وشيخكم البليدُ

وفارَتنا من فوق سطـح * * * فجحشكم له منـها نديدُ

ويواصل انتقاده للطرقية في عصره بأبيات لاذعة مهاجما إياهم بحبله الطويل ويقول:

أنا صاحبَ الحبل الطويل أتَيْتُكُمْ * * * شِعْري كحَبْلِ مُحكمٍ وطـويل

مَهْما أُلاقي جَمْـعَكم ينتابُنِي * * * داءُ الحماسةِ وعند ذاكَ أصولُ[3]

1 - يذكر عبد الله ركيبي ص: (604-603) أن رشيد هذا هو كاتب ينتمي للطرق الصوفية تبعا لما جاء في جريدة النجاح التي كانت في أحيان كثيرة لا تهاجم الطرق بشدة، بل إنها أصبحت تميل إليهم أواخر العشرينات وفي آخر أمرها كانت تمالي السلطة الإستعمارية.
2 - عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص: 604.
3 - عبد القادر خليفي، المرجع السابق. يذكر عبد الله ركيبي ص: 603 أن بولحبال كان يوقع باسم (بوحبل).

فشعر بولحبال هنا ذا أسلوب مرح فيه هجاء على شكلٍ فُكاهي وسخرية، مما يوضح إحدى صفات حسن بولحبال، وقد كان وقعه على رجال الطرق الصوفية أشدّ من الحِجاج الفعلي ومن الحُسام المهنّد.

ويذكر عبد الله ركيبي صاحب كتاب «الشعر الديني الجزائري الحديث» أن بولحبال انكسرت رجله فأعاد الطرقيون ذلك جراء تطاوله عليهم وسبه إياهم، فرد عليهم بما يلي:

«قال كُسرت فقلت: ربي جابر * * * أوَ تجرؤون على الفتى مع ربه

فتدللوا بمُروقكم من دينـه * * * وتقربوا ببعادكم عن قُرْبِهِ

قالوا سببتَ تصوفا، عجبـا لهم * * * قد دنّسوه وأشفقوا من سبه

والحديث عن التصوّف والسخرية منه أو التفكه بأصحابه كان سِمَةً من سِماتِ الشِّعر الإصلاحي وظاهِرَةٌ عامة في قصائد الشعراء على وجه العموم»[1].

ويشابه في هذا النقد اللاّذع ما جاء به الشيخ الطيب العقبي في إحدى قصائده ينتقد فيها بعض أدعياء الدين، الذين يتصيدون أموال الشعب البائس، والتي يقول فيها:

تجارةُ قومٍ عاجزينَ سبـيلُهُم * * * سبيلَ ضلالٍ جانَبوا العلم والصِّدْقا

وشيخُهم الأنقى الوَليُّ بِزَعْمِه * * * إذا ما رأى مـالاً أمـالَ لهُ عُـنُقا

أولئِكَ عُـبُّاد الدراهـمِ ويْلَهُم * * * سيَمْحَقـهم ربي وأمْوالهـم مَحْـقا

مَتى أَلْقَهُم أبْصر شياطينَ فِتنةٍ * * * ويا ليْتَ أنِّي لا أراهُـم ولا أَلْـقَى

قد انْتَشرُوا بالغَيِّ في كل بَلدةٍ * * * فلم يَتْرُكوا غَرْبا ولم يَتْرُكوا شرقا[2]

وقد حصل هذا الشجّار في الفترة نفسها، أي في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، بين رجال الطرق من جهة والمصلحين من جهة ثانية، واستَعَرَتْ الحرب القلمية بينهما شديدةً لاهِبَةً، عن طريق الصحافة، يقول عنها أحمد توفيق المدني ما يلي: «وما فتئت الحرب القلمية أن أُعلنت شديدة قاسية بين الطرفين، تُمثل جماعة العلماء جريدة المِرصاد التي يحرّرها أخونا المِفضال السيد محمد عبابسة.. وتمثل جماعة المرابطين ورجال الطرق جريدة البلاغ الجزائري»[3].

1 - عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص: 594.
2 - صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص: 41.
3 - أحمد توفيق المدني، حياة كفاح «مذكرات»، القسم الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1977، ص: 222.

وبعد أن ينقل أمثلة عما كان يدور بين الطرفيين والمصلحين من حماقات وسفاهات، يضيف الكاتب والمؤرخ الجزائري نفسه: «واستمرت الحالة على مثل هذه الوتيرة من مقالة السوء والشتم والثلب واللّمز والغمز، بل ازدادت سوءا إلى أن خشيتُ سوء العاقبة وفوز الإدارة الإستعمارية بما كانت ترجوه وما لا نرجوه من تشتيت الشمل وتمزيق العصبة وتفريق الجماعة طرائق قددا..»[1] ولم يكتف الطرفان بهذا، بل أنشأ كل منهما جريدة لهذا الغرض، فأنشأ الطرقيون جريدة «المِعْيار» يصف الكاتب نفسه ما كانت تحمله من السفاهة والبذاءة والابتذال، قابلهم المصلحون بجريدة سموها «الجحيم» تتصف بالصفات نفسها.

أما الموقف الآخر الذي أبداه الشيخ بولحبال، والمُخالف للتوجه السابق، فنجده قد صدر عن الشيخ سنة 1939م، حين عُقد «مؤتمر الزوايا والطرق الصوفية» بمدينة الجزائر[2]، وخاطب بولحبال الحاضرين من رجال الطرق الصوفية بقصيدة طويلة دعا فيها إلى نبذ العنف واستعمال طرق الحوار والنصح للمسلم، فهو يقف موقف الحَكَم، ولم يقم خصما لأحد في ذلك الصراع الذي احتدم بين الإصلاحيين والطرقيين وها هو يقول في الإشادة بالتصوف:

وللناس في معنى التصوف أوجُهٌ * * * تعود إلى إخلاصِ عبْدٍ فيخدُمُ
طريقٌ سَوِيٌّ خَوْفَهُ ورجاؤُهُ * * * وصبْرٌ وشُكْرٌ زُهْدُهُ وتَنَدُّمُ
رضاءٌ وحبٌّ صادقٌ وتوَكُّلٌ * * * وتخلية مِنْ كُلِّ سُوءٍ تقَدُّم

أما دعوته إلى المصالحة والتفاهم فمنها :

فلا تتعصب وانصحِ القومَ كلهم * * * بِلِينٍ تَجِدْ في الحينِ مَن يتأثَّم
ولا تَهْتِكِ الأسْتارَ فالله ساتِرٌ * * * ولا تَفْشِ سِرَّ المَرْءِ والمرْءُ يَكْتُمُ

ويدعو إلى التعاون وتناسي الأحقاد ورص الصفوف، مستلهما أحد الأحاديث النبوية في قوله :

أمَا جاء أن المؤمنينَ ودادُهُم * * * ورَحْمَتُهم والعَطْفُ جسْمٌ مجَسَّم
إذا ما اشتكى عُضْوٌ تداعَى جميعُهُ * * * ويسْهَرُ باقِيهِ بِضُرٍّ ويَحْمُمِ
دَعُوا مشكلا لم يتضح وجْهُ قُبْحِهِ * * * ولا تقتلوا فيه النفوسَ فتنْدَموا

1 - نفسه، ص: 225.

2 - Association des ordres religieux et confréries musulmanes d'Algérie.

ويتبع الأسلوب نفسه في كلماته المنثورة في الدعوة إلى الإعتدال حين يقول: «وأُثبِتُ الآن وأنا على فكري داعيا إلى التصوف والإصلاح والصلح على هذه القاعدة من غير تعليق على أمور منفرة تمليها الظنون»[1].

لقد تحول الشيخ حسن بولحبال من رجل شديد التهجم على الطرقيين إلى رجل متعقل مصلح، فما مرد ذلك؟

يمكن تفسير هذا التغير الذي طرأ على موقف الشيخ بما يلي :

- **أولا:** وقف الشيخ معارضا للطرقية في أول عهده بسبب الإختلاف بين الشرق الجزائري الذي تأثر كثيرا بالحركة الإصلاحية وبخاصة لقرب المنطقة من المشرق العربي الذي كان يشهد حركة نهضوية واسعة، وعودة الشاب حسن بولحبال من الزيتونة متشبعا بأفكار النهضة والإصلاح، واستقراره بهذه المنطقة ليشتغل مدرسا ثم مفتيا في كل من باتنة فعين البيضاء فخنشلة ثم بجاية: بينما كان الغرب الجزائري تحت رحمة المستوطنين الذين كانوا أكثر انتشارا وأشدّ تحزّبا وتسلطا على السكان، كما أن انتشار الطرق الصوفية كان أكثر في هذه الجهة.

- **ثانيا:** يعود السبب الذي جعل الشيخ يقف موقف الرجل العاقل المصلح إلى انتقاله من مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة، هذه الأخيرة التي يتصف فيها الإنسان برجاحة العقل وإتباع سبل الهِداية والمهادنة. ولهذا ساير الشيخ الوضع المحيط به في تلك الفترة، بل كانت له صداقات حميمية مع العديد من رجال الطرق الصوفية، وتحول مِنْ رجل شديد على الطرقية إلى رجل مسالم يتفاهم مع الجميع ويدعو إلى التعقل والأناة.

موقفه من السلطات الفرنسية:

حصل حسن بولحبال على مكانة سامية في الأوساط الفرنسية وشهد له البعض بالإخلاص للعلم الفرنسي وللقضية الفرنسية عامة[2] فكان من المقربين الذين حصلوا على بعض النياشين والأوسمة وتقلد منصبا في جمعية الأحباس والحرمين الشريفين[3]، مما يعني ثقة الفرنسيين في شخصه لخدماته مثل والده الذي كان قد حصل على وسام (Officier d'académie).

1 - عبد الرحمن بن العقون، المرجع السابق، ص: 152-154.

2 - رسالة من أحد المجهولين باللغة الفرنسية موجهة إلى ضابط في القوات الفرنسية بوهران يمدح فيها الرجل ويطلب المساعدة لتعيينه مفتي بوهران، ويعترف بخدماته الكثيرة لفرنسا. أنظر ملف : Section musulmane, IBID

3 - Société des Habous des lieux saints de l'Islam

ومن ذلك ما اطلعنا عليه من أن بولحبال نفسه ألقى خطابا في احتفالات أول ماي سنة 1941م ببجاية نَوَّهَ فيه بالسلطات الفرنسية وبرئيسها. إلا أننا لا يجب أن نعتبر أن بولحبال كان موالٍ للفرنسيين قلبا وقالبا، بل هي المداراة والحيطة والحذر، لقد خدم العديدُ من الجزائريين تحت الراية الفرنسية وقت الإحتلال لسبب أو لآخر، فهل يعني أن كل ما يصدر عن هؤلاء هو خدمة للإستعمار وتكثيرٌ لقُواهُ وشدٌّ لأزره؟ كلا لا يمكن أن نعمم الأمر على كل الجزائريين، وإذا ما لمسنا تقاربا مع المستعمر أو دفاعا عن بعض مواقفه من جزائريين، فهذا لا يعني بالضرورة العَمالة وخدمة المحتل، بل قد تعني الحيطة والحذر والمداراة كما ذكرنا. يقول أحد شهود العيان آنذاك ما يلي: «ربما يُنقل عن مثل هؤلاء من تصريحات أو مواقف تدلّ في ظاهرها على تعاون أو خضوع للمستعمرين، فهي حالة رأيناها تقريبا في جميع الأوساط الحزبية الدينية والسياسية، وقد يعتذر لصاحبها عنها بأنها من باب الحكمة للنجاة من مكائد المستعمرين»[1].

أما موقفه الحقيقي من الفرنسيين، والذي لم يُظهره، وهو الموظف في الدوائر الحكومية، هو ذلك الذي نجده في قصيدة القمر المنشورة في كتاب شعراء الجزائر الصادر سنة 1927م. فهو يخاطب القمر في الظاهر، لكنه في واقع الأمر، يتحدث عن رأيه في الإستعمار البغيض الذي استولي على كل شيء وحطم كل شيء. « ومن هذا ينطلق إلى وصف البشر وظلمه وأن الإنسان جُبِلَ على الشر وإيذاء الآخرين، مشيدا بنور القمر ومنافعه للناس، ويَسْتَعْدِيه على من يحاول أن يشوّه جماله وضياءه»[2]. ويحذر في قصيدته، هذا الكوكب من أن يجيبهم لما يريدون ويقول:

هم غمزوا قناتَكَ يومَ أوْحَوْا * * * إلى المريخ ما أوْحَوْهُ بَرْقا

أُجُلكَ أن تكونَ لهم مُجيبا * * * أجِلك أن تلين لهم فتشقَى

وما ضاقَتْ بهم أرضٌ ولكنْ * * * لهم شَرَهٌ به الآمال حَمْقَى...

وهو في هذه القصيدة يناجي كوكب القمر كطريقة رمزية لفضح أعمال الإستعمار وتِبْيان جرائمه وتتمحور كل الأبيات حول فِعال الإستعمار القبيحة، فهو يحذّر هذا الكوكب من هؤلاء الغزاة الذين يريدون استرقاقه ووطء سطحه بأقدامهم، ويهاجم الإستعمارَ بطريقة الرمز حينا ومباشرة حينا آخر.

وها هو يذكر فِعال الإستعماريين الأوربيين ويقول:

1 - عبد الرحمن بن العقون، المرجع السابق، ص: 139-140.
2 - عبد الله ركيبي، ص: 668.

وللسياسة الشوهـا أناسٌ * * * يَرَوْنَ الفتقَ في الأعْراض رِتْقا
ويعتبرون فِعل الشر خيرا * * * ويعتـقـدون ضَـرَّ الغيْرِ رفقا

ويتعرض للحيل التي يستعملها المستعمرون لإخفاء نواياهم، وهو يخاطب القمر دائما، ويقول:

فلو صرفوا ضياءَكَ عنك قالوا * * * لتصـبح بعده أنقى وأرقى
فما تـدري لهم عرفا ونكرا * * * وما تدري لهم كذبا وصدقا

ويعلق صاحب الكتاب على هذا القول في الهامش(في سنة 1927م) بقوله: «هته هي دعوى الإستعمار في كل شيء، فإنه ما استرق الأمم الضعيفة إلا بدعوى اصطحابه التمدين والتعليم والتعمير ،وآثارُ استعمارهم التي نُقلب فيها البصر كل يوم تُنذر بالتخريب والتجهيل». وهذا التعليق من قبل مؤلف الكتاب، خير دليل على يقظة الجزائريين ووعيهم بما كان يحدث من حولهم، فيما كان يفعل الإستعمار في وطنهم، ولكنهم كانوا ضعافا لا يملكون من الأمر شيئا، فعبّروا عن أحاسيسهم بالأدب، ولهذا كان بولحبال أديبا شاعرا.

فمن هو بولحبال الشاعر؟

لم تقتصر اهتمامات الشيخ بولحبال على مهنة التعليم التي اختارها لنفسه في أول مشواره، ولا الوظيفة الرسمية المتمثلة في الفتوى التي نالها بجهده وجهيده، بل كان للشيخ ميدان آخر استطاع أن يبرز فيه، وينال به المكانة العليا بفضل تلك المَلَكة التي أعطاه الله إياها، ويتمثل في الشعر العمودي المعتاد لدى الشعراء آنئذ.

لقد ساعد الشيخ مستواه العلمي الفائق ولغته الفصيحة العالية في أن يتفوق في ذلك الشعر الذي بلغ فيه ما كان يتمنى، وقد ولج مختلف فنونه، مع ما كانت له من موهبة فطرية.

قال عنه محمد الهادي السنوسي الزاهري صاحب كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر» ما يلي: «أما الشعر فقد حل لغزَهُ صغيرا، وتدرج فيه وهو في رَيْعان الشباب إلى أن صار كهلا مرضيا وهو ساع في جمع ديوانه، وله عزم على طبعه، ولا ريب أن نهضتنا الأدبية الحاضرة توجب ذلك وتقضي به»[1].

ويمثل لنا المؤلف بثلاث نماذج من شعر بولحبال، بدأها بقصيدة تتكون من ست وعشرين(26) بيتا يخاطب فيها الشاعرُ كوكبَ القمر محذّرا إياه من الغربيين المستعمرين الذين لم يكفهم وجه الأرض، فراحوا يبحثون عن مجال لهم في الفضاء، وتبدأ القصيدة بما يلي:

1 - محمد الهادي السنوسي الزاهري، المرجع السابق، ص: 75.

أحقا يا جمال الكون حقا * * * ستصبح بعد عِزِّك مسترقا

وتعلوك الأسافل من أناس * * * رأيت فعالهم غربا وشرقا

ويثني المؤلف بمقطوعة من تسع (9) أبيات يتحدث فيها الشاعر عن ظروف بلاده المأساوية، وعن مآسي الحياة، وقد عنونها المؤلف بـ «وما كان لي لولا بلادي تخوف». وتبدأ المقطوعة بما يلي:

دعاني من سلمي وواش تحرشا * * * وهيا بنا للجد فالأمر أدهشا

ولا تحْسِباً أني سَلَوْتُ وإنما * * * تَحَوَّل بي دَهْري فكنت كما يَشا..

ويمثل المؤلف ثالثا ببيتين عن التصوف للشاعر هما:

قيل التصوف أصلُهُ * * * من بعض زُهاد الهُنود

قلنا تصوف عصْرِنا * * * مِن شر أخلاقِ اليهود

ويعتذر المؤلف عن عدم نشر كل قصائد الشاعر الكثيرة بسبب أنه فقدها أثناء الطبع، ويَعِدُ القُرّاء بتلافي ذلك في جزء ثالث من الكتاب. فهل حقق المؤلف أمنيته في إصدار الجزء المذكور، وإذا لم يتمكن من ذلك فهل استطاع ابن الشيخ من إصدار أحد كتبه أو ديوانه الشعري حتى يطّلع عليه جمهور القرّاء والمثقفين، وهو ضروري حتى نعرف مدى ما وصل إليه مثقفو الجزائر في الفترة الأخيرة من الإستعمار والشيخ بولحبال أحد هؤلاء البارزين، يشهد على ذلك ما وصلنا من إنتاجاته.

أما عبد الله ركيبي في كتابه «الشعر الديني الجزائري الحديث» فيأتي بست نماذج قد تكون قصائد كما قد تكون مقطوعات شعرية.

يتمثل النموذج الأول في البيتين المذكورين سابقا وهما عن التصوف فلا مجال لإعادة التعرض لهما.

ويتمثل النموذج الثاني في أبيات تُعتبر جزءا مما كان بينه وبين رجال الطرق من مشاحنات، تبدأ بما يلي:

قال كُسِرْتَ فقلت: ربي جابرٌ * * * أوَ تجرؤون على الفتى مع ربه

ويتمثل النموذج الثالث في أبيات تبدأ بما يلي:

رشيدُكم السفيـه فما يريد؟ * * * وأنتم للعصا طُرًّا عبيدُ

والنموذج الرابع يبدأ بالبيت التالي:

أنا صاحب الحبل الطويل أتيتكم * * * شعري كحبل محكم وطويل

ويبدأ النموذج الخامس بما يلي:

يا رشيدَ النجاح أنت سفيهٌ * * * أنت والله خامل لا نبيه

والنموذج السادس يتمثل في قصيدة القمر التي جاءت في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحديث.

أما الكتاب الثالث الذي مثل ببعض قصائد الشيخ بولحبال فهو عبد الرحمن بن العقون في مذكراته، وقد اقتصر على نموذج واحد يبدأ بالبيت التالي:

وللناس في معنى التصوف أوجه * * * تعود إلى إخلاص عبدٍ فيخدُمُ

مما سبق ذكره تمكنا من الإطلاع على ثماني نماذج من شعر بولحبال، من الكتاب من استلم القصائد من الشاعر نفسه مثل محمد الهادي السنوسي الزاهري، ومنهم من استقاها من بعض المجلات التي نشرتها مثل عبد الله ركيبي الذي استند على الجرائد التالية : الإصلاح (1929م)- النجاح (1926م) - صدى الصحراء (1926 م).

لقد برز الشيخ في الشعر بكل قوّة، والشعر العمودي منه بخاصة، المتسم بالبلاغة والسلاسة وحسن اختيار الكلمات والألفاظ، وكثيرا ما كان يقول الشعر مرتجلا، بحسب ما يُرْوَى عنه، من ذلك أن الشيخ المهدي البوعبدلي، وهو أحد زميليه في بجاية، تغيب ذات مرة بوهران، فلم يزره زميله الآخر الشيخ محمود بوزوزو، فما كان منه إلا أن ارتجل هذا البيت، موجها كلامه لمحمود بوزوزو، عندما حضر عنده الاثنان بعد مدّة، وقال:

غاب أبو عبد الإله فهَجَرْتَ المسجدَا * * * كأنما أرْصَدْتَ فيه نَمِراً أو أسَدَا[1]

ومما يثبت قوّة شاعرية بولحبال ومكانته البارزة بين الشعراء هو نجاحه في إحدى المسابقات التي شارك فيها على المستوى المغاربي من بين مائة وعشرين (120) من أدباء المغرب العربي سنة 1926م حصل فيها على المرتبة الثالثة. وقد عادت المرتبة الأولى لجزائري آخر هو عبد الله بن المبروك من

1 - رواية الشيخ عياض البوعبدلي، شيخ الزاوية البوعبدلية ببطيوة. المقابلة في فيفري سنة 2003.

مدينة طولقة، وحصلت الأديبة المغربية مريم القانونية، وهي من مدينة فاس، على المرتبة الثانية[1]. وهكذا حصلت الجزائر على نصيب الأسد في هذه المباراة العلمية، فمن قال إن الجزائر عاقرة في إنجاب أشهر الأدباء في فترة الإستعمار الفرنسي؟

الخلاصة:

لقد أسهم الشيخ حسن بولحبال في الحركة الثقافية في مرحلة كانت البلاد فيها أحوج ما تكون إلى من يأخذ بيدها إلى بر الأمان، كانت فكرة الإصلاح قد نبتت في عهده، فكان من الذين دعّموها بما قدم في ميدان التعليم وما أنتجه من شعر بليغ ملأ فراغا كبيرا، وأثبت أن الشعب الجزائري لن يتأخر عن ركب النهضة العلمية التي كانت تشهدها الساعة العربية والإسلامية، إلى جانب بقية رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر.

1 - سليمان الصيد، نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخيار، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد، الجزائر 1994، ص: 233. نقلا عن جريدة النجاح عدد 307/ المؤرخة في 18-6-1926م

المراجع

1 - شهادات:

- عياض البوعبدلي، شيخ الزاوية البوعبدلية ببطيوة. المقابلة في فيفري سنة 2003.

2- Archives

-Section musulmane, dossier no 3533, cote 2260. Archives de la wilaya d'Oran.

3 - مصادر ومراجع عامة:

- ابن باديس، حياته وآثاره، الجزء الرابع، جمع ودراسة عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث والسابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998.
- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح «مذكرات»، القسم الثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1977.
- الشريف شناتلية، التركة المغمورة، هؤلاء لهم أثر، مطبوعة بمناسبة الذكرى 35 لاندلاع الثورة التحريرية، عين البيضاء، أكتوبر 1989.
- سليمان الصيد، نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخيار، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد، الجزائر 1994.
- صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- عبد الرحمن بن العقون، مذكراتي، منشورات دحلب، الجزائر 2000.
-عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
-محمد الهادي السنوسي الزاهري، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، الجزء الثاني، مطبعة النهضة، تونس 1927.

4 - مقالات:

- عبد القادر خليفي، حسن بولحبال مفتي وهران، مجلة إنسانيات، إصدار مركز البحث في الأنثروبولوجية الإجتماعية والثقافية بوهران. CRASC العددان 23 - 24، جانفي-جوان 2004.

5 - مراجع باللغة الفرنسية:

- Jean et André brochier, Livre d'or de l'Algérie, dictionnaire des personnalités passées et présents, Bacconier frères imprimeurs éditeurs, Alger 1937.